

خلفيات المجزرة التي ارتكبت ضد حزب توده عام 1983

عادل حبه

ليس هناك أدنى شك في أن الثورة الشعبية الإيرانية التي تفجرت في عامي 1978-1979 تعد من بين الثورات الشعبية الكبرى التي حدثت في القرن العشرين من حيث حجم المشاركة الشعبية الواسعة واستمراريتها وعفويتها لحين اسقاط النظام الشاهنشاهي في شباط عام 1979. وسلكت هذه الثورة الطريق نفسه الذي سلكته غالبية الثورات من حيث المصير الذي آلت إليه وفشلها في تحقيق المطالب والأهداف التي رفعتها وطالبت بها جموع المشاركين من شتى أطياف ومكونات الشعب الإيراني. فبدلاً من أن يتحقق شعار الحكم للشعب والحرية للمواطنين وهو الشعار الذي رفعته الجماهير، تحول النظام الجديد تدريجياً إلى نظام ثيوقراطي فرض نمط من الاستبداد الديني في هذه البلاد، وتم تصفية كل مظاهر الحريات السياسية والفردية في إيران. وازدادت تبعاً معاناة الإيرانيين من الناحية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية ليخيم الركود في شتى مجالات الحياة، ولتعيش البلاد في عزلة عن العالم الخارجي، وأصبح الحكم عامل سلبي يثير عدم الاستقرار في المنطقة.



الثورة الشعبية الإيرانية عام 1978-1979

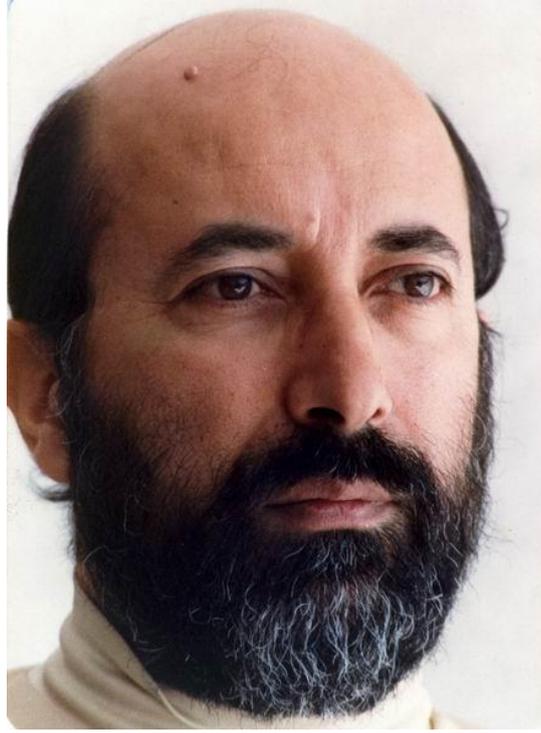
هذه التطورات السلبية التي عصفت بالبلاد ما كان لها أن تشق طريقها إلا بفعل عوامل داخلية لفئات اجتماعية تخشى أي تحول جذري في البلاد على طريق الحداثة والتغيير العصري. وشدد من هذا الإتجاه هو سعي قوى خارجية تتحكم بمصير شعوب العالم، وراحت تعمل لزعة وحرف الثورة الإيرانية عن مسارها لدوافع الحفاظ على مصالحها ومواقعها في المنطقة وعلاقة ذلك بكابوس الحرب الباردة التي غطت على الأحداث الدولية منذ عام 1949 وحتى الآن. شاركت في الموقف السلبي من الثورة أيضاً أنظمة إقليمية أرعبها مسار الثورة في بدايتها وحركتها لدوافع مذهبية وقومية. وتتوج ذلك الجهد في شن الحرب على إيران ، بعد سنة تقريباً من سقوط النظام السابق، لتفتح الطريق وتوفر الفرصة أمام الفئات المتعصبة والتيار المذهبي المحافظ لتعزيز مواقعه وفرض إرادته، وليزحف تدريجياً

بالسيطرة على مفاتيح الاقتصاد والسياسة والثقافة والإعلام ومؤسسات الدولة مستغلاً ظروف الحرب، لينحرف مسار الثورة كلياً عن أهدافها الرئيسية.

ما يلفت الإنتباه إن الغرب، وتحديداً الولايات المتحدة وبريطانيا، عملت منذ الأيام الأولى للثورة على عرقلة أي تطور إيجابي في البلاد سواء عبر اللجوء إلى العمليات الاستفزازية المسلحة، كما حصل في الإنزال العسكري في صحراء طبس بذريعة تحرير الرهائن من موظفي السفارة الأمريكية في طهران، أو من خلال نشاط اجهزتها الاستخبارتية. وبادرت الولايات المتحدة بالتعاون من فلول النظام السابق وأطراف إقليمية حليفة لها إلى إذكاء لهيب الحرب العراقية الإيرانية ودفع نظام صدام إلى أشعال هذا الحريق المدمر الذي دام ثماني سنوات بهدف شل وتدمير قدرات البلدين. يبدو أن كل تلك الأساليب لم يحالفها الحظ ولم يتحقق الهدف الأساسي وهو إسقاط النظام الجديد، ولكن ذلك عزز من نفوذ التيارات الأكثر تشدداً وتعصباً مذهبياً في قمة السلطة.

بعيد الثورة، شرعت المخابرات البريطانية MI6 بتنفيذ خططها بذكاء، وركزت نشاطها في عدة اتجاهات، أولها العمل على غلق الأبواب بوجه أية مساعي لترطيب الأجواء بين النظام الجديد وبين الإتحاد السوفييتي، وثانياً العمل على تحويل الخلافات بين المشاركين في الثورة إلى مواجهات عنفية ودامية لغرض تقليص القاعدة الاجتماعية للسلطة الجديدة، وإفشال أية مساعي من قبل حزب توده إيران لإستعادة نشاطه ودوره السابق في الساحة السياسية الإيرانية قبل الإنقلاب الذي حاكته وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ضد حكومة الدكتور محمد مصدق الوطنية في آب عام 1953. وثالثاً مد الخيوط مع أطراف في الحكم والتغلغل في جهاز الدولة الإيرانية، خاصة وإن أطرافاً في الحكم الجديد مارست الضغوط لإرجاع غالبية عناصر الأجهزة الأمنية، وخاصة الساواك، إلى مواقعهم باستثناء القسم الخاص بمكافحة نشاط التيار الديني المتطرف، وأبقت على أقسام مكافحة الشيوعية والقوى الديمقراطية بكل طواقمها السابقة.

كما سهلت أطراف مؤثرة في الحكم في إيران على وقوع الحكم في فخ الأجهزة الأمنية الخارجية، ومن بينها أطراف في القوى القومية الدينية المعادية للشيوعية ولحزب توده بالذات. فمنذ الأيام الأولى للثورة، بدأت ميليشيات حزب الله التي تأسست بتشجيع من مصطفى جمران، القيادي السابق المتعصب وأحد مؤسسي حركة أمل في لبنان، إلى شن الهجمات بين حين وآخر على مقرات الأحزاب السياسية الإيرانية أو فض تجمعات ومظاهرات هذه الأحزاب بقسوة . وأضحى هذا الأسلوب المفضل لدى هذه الميليشيات لتحجيم وتهميش أية حركة سياسية لا تنسجم مع نهجها واسلوبها. ولم تكن أيادي المخابرات الأجنبية، كما أشرت، بعيدة عن هذا النهج كي تدق اسفين بين القوى المشاركة بالثورة من ناحية، ومن ناحية أخرى السعي لتهميش دور اليسار على وجه الخصوص. ووجدت المخابرات البريطانية ضالتها عندما أبدى أحد موظفي السفارة السوفييتية آنذاك، وهو ضابط في جهاز أمن الدولة السوفييتي (ك.ج.ب.)، المدعو فلاديمير أناتوليفيتش كوزيچكين بتقديم خدماته في هذا الإطار.



مصطفى جمران وزير الدفاع والأمن، طرف في التحضير للهجوم على حزب توده ايران قبل مقتله على جبهة الحرب العراقية الإيرانية في 29 تشرين الأول عام 1980

وكان هذا الرجل يحتل منصب القائم بالأعمال السوفييتي في طهران، إضافة إلى توليه مسؤولية العلاقة مع الأحزاب الإيرانية وبشكل خاص مع حزب توده إيران. كما تولى مهمة الصلة مع ممثل الحزب الشيوعي العراقي في طهران عادل حبه بناء على إتفاق بين قيادة الحزب الشيوعي السوفييتي والحزب الشيوعي العراقي، حيث يتولى ممثل الحزب الشيوعي العراقي استلام الرسائل المرسلة من قيادة الحزب الشيوعي العراقي، ويتم نقلها عبر الحدود الجبلية الايرانية العراقية إلى إقليم كردستان العراق حيث بدأت تتجمع هناك ما فلت من تنظيمات الحزب بعد الهجوم الذي شنته سلطة البعث على الحزب الشيوعي منذ عام 1978.

وكما تشير مصادر رسمية روسية، فإن فلاديمير اناتوليوفيتش كوزيچكين ولد في عام 1947 في العاصمة موسكو، وبعد إكمال الدراسة التحق بالخدمة الإلزامية العسكرية في مدينة هاكنو على الحدود بين ألمانيا الشرقية والغربية في قاعدة لإطلاق الصواريخ الحاملة للسلاح النووي.



فلاديمير اناتوليوفيتش كوزيچكين

وخلال خدمته العسكرية التحق بصفوف الحزب الشيوعي السوفييتي مما سهل انخراطه للدراسة في معهد الدراسات الشرقية- اللغة الفارسية. انهى دراسته في المعهد عام 1974، وسافر إلى إيران من أجل التطبيق وصل مهارته اللغوية. وعمل مترجماً في منجم "بافق" وفي مشاريع في مدن أخرى تولاها الخبراء السوفييت. وعاد إلى موسكو ليعثر على مكان له في هيئة امن الدولة (ك.ج.ب.)، في القسم الخاص بالتجسس. وفي عام 1977 وقبل سقوط النظام الشاهنشاهي، انتقل إلى طهران ليعمل كجاسوس محترف تحت غطاء وظيفته في القنصلية السوفييتية في طهران. وتشير المصادر الروسية لاحقاً أنه قد تعامل مع جهاز "الساواك" في العهد الشاهنشاهي كجاسوس مزدوج، وكشف سر الجنرال الإيراني أحمد مقربي الذي أعدم قبل الثورة، كما شرع بمد الحسور مع محطة المخابرات البريطانية في طهران (MI6). ويشير سكوت ماك لويد، مراسل وكالة يونايتد برس انترناشنال، في مقالة له تحت عنوان "ضربة مدمرة توجه ضد ك.ج.ب" بعد لجوء كوزيچكين إلى بريطانيا في عام 1982، إن المخابرات البريطانية قد حصلت على الحوت الأكبر في علاقتها مع هذا الخائن لوطنه. وقام فلاديمير كوزيچكين بعد الثورة، بالتنسيق مع المخابرات الإيرانية والبريطانية بمهمة استدراج أحزاب وشخصيات سياسية إيرانية واللقاء بهم بهدف تصوير الأمر على أنه ضرب من نشاط مزعوم للاتحاد السوفييتي واليسار الإيراني وحركات سياسية إيرانية ضد الحكم الجديد في إيران.



محمد رضا سعادتني في المحكمة

وهذا ما حصل ل محمد رضا سعادتني أحد قياديي منظمة مجاهدي خلق بعد الثورة، الذي استدرج إلى لقاء مع موظف سوفيتي كي يعتقل ويوجه له الإتهام بالتجسس لصالح الاتحاد السوفياتي لضرب عصفورين بحجارة واحدة، التآليب على الاتحاد السوفيتي من ناحية أخرى، وتحقيق رغبات المتطرفين في السلطة الحاكمة الايرانية للتخلص من نفوذ منظمة مجاهدي خلق. وقد أعدم سعادتني هو الآخر من قبل السلطات الإيرانية في عام 1981 بدون دلائل مادية بدعوى قيامه بعلاقة مع السوفييت في طهران عند لقائه مع مسؤول في السفارة السوفيتية.

في شباط عام 1979، لجأت إلى عدن عاصمة جمهورية اليمن الديمقراطية، واستمعت إلى خبر سقوط النظام الإيراني الشاهنشاهي، واستلمت على اثرها رسالة من قيادة الحزب بالتوجه إلى دمشق. وما أن وصلت دمشق حتى تم إبلاغي بالاستعداد للذهاب إلى طهران برفقة الرفيق كريم أحمد عضو المكتب السياسي. ساعدتنا منظمة التحرير الفلسطينية بالحصول على تأشيرة الدخول إلى إيران. وعلى الفور توجهنا إلى العاصمة الإيرانية من بيروت في نهاية شهر شباط عام 1979. أول لقاء جرى لنا كان مع قيادة حزب توده ايران في اجتماع خاص للمكتب السياسي الذي ضم غالبية جديدة من ضباط حزب توده الذين قضوا 25 سنة في سجن النظام الشهنشاهي وأطلق سراحهم بعد الثورة، وانتخبوا كأعضاء في المكتب السياسي للحزب. وقد شاركتم في السجن لسنوات مع صحبة رائعة حتى إنتهاء محكوميتي في عام 1971. كما أجرينا لقاء مع أحد قياديي منظمة فدائيي خلق اليسارية المدعو فتا پور، وانتهزت الفرصة كي أزور الشخصية الوطنية البارزة ورجل الدين المتنور آية الله سيد محمود الطالقاني الذي ربطتني به علاقة الاحترام والمودة في فترة سجن الشاه في عقد الستينيات من القرن الماضي، وذلك في مقره في حسينية الإرشاد في طهران. كما تقرر اللقاء بأحد مسؤولي السفارة السوفيتية من أجل تنظيم الصلة لتداول الرسائل الخاصة بالحزب الشيوعي العراقي. وتم تعيين أحد الأشخاص لهذا الغرض، إلى أن تم تغييره ليصبح فلاديمير اناتوليوفيتش كوزيچكين ليقوم بمهمة الصلة بي، ومنذ اللحظة الأولى لصلتي به إنتابني قدر من الشكوك حول تصرفاته وطبيعته أسئلته التي لا تمت بصلة بالمهمة التي كُلف بها.

وتفاصيله. ولذا ومن باب الحيلة وقبل خروجي، سلمتها كل الأوراق غير الضرورية، وأبقيت فقط على جواز سفري اليمني الديمقراطي. وسرت إلى المكان في الموعد المحدد، وما أن وصلت حتى شاهدت هذا الشخص وفي حالة إرتباك، وسلمني على عجل حزمة من الرسائل التي عرفت خلال التحقيق أنها مرسلة من المكتب السياسي للحزب، وظرف مغلق لم أعرف محتوياته، وعرفت أثناء التحقيق أنه مبلغ من النقود مقداره 10000 تومان (الدولار يساوي 7 تومان في ذلك الوقت). ثم غادر المكان بسرعة، وفي لحظة مغادرته توجهت صوبي ثلاث سيارات بأنوارها العالية وضجيج أبواقها مما زاد يقيني بأن هناك لعبة يولييسية مخابراتية، وحاولت الهرب وتوجهت إلى أحد الشوارع الفرعية، وتبين أنه مغلق مما سهل على المطاردين الإحاطة بي وإعتقالي.

نقلت إلى عمارة نزعت عنها صور الشاه والمسؤولين السابقين، وتولى التحقيق مجموعة من "الأفندية" لا علاقة لهم بأهل اللحي من المسؤولين الجدد. وتيقنت أنهم من الموظفين السابقين في جهاز السواك الذين تم أعادتهم إلى الخدمة بعد الثورة بأشهر. وتيقنت من ذلك خاصة بعد أن التحق بالمحققين أحد ضباط السواك الذي حقق معي في العهد الشاهنشاهي عام 1964، وهو من أصول عراقية ويكنى علي زاده، وعرفت آنذاك أنه ينحدر من عائلة المراياتي الكربلائية في العراق. تركز التحقيق على علاقتي بالضابط الروسي موجهين الإتهام بأن مهمتي هي التجسس لحساب الاتحاد السوفييتي ولديهم صور فوتوغرافية لهذه اللقاءات بالتعاون مع حزب توده ايران. سألت المحقق ما هي الدلائل على التجسس، هل وجدتم أي تقرير بخط يدي موجه إلى الطرف السوفييتي يؤكد هذا الاتهام، وهل لديكم صور، والأفضل ملونة، عن هذه اللقاءات. استنفر كلامي المحققين وأنبى أحدهم الكلام وقال هل تسخر منا. سنريك، بلغة التهديد والوعيد. لم يقدم فريق التحقيق خلال كل أيام التحقيق أية وثيقة أو مدرك يؤكد ذلك ولا أية صورة فوتوغرافية عن هذه اللقاءات طوال فترة التحقيق، سوى أنهم سألوني ماذا تعني مفردة "م.س." الموجودة في الوثائق التي استلمتها. تيقنت أنها رسائل مرسلة من المكتب السياسي (م.س.)، وانتابني قدر كبير من الارتياح لأنها لا تعني سوى أنها وثيقة عراقية شيوعية صرفة ولا علاقة لها باتهام التجسس ضد إيران. اجبت المحققين إنها رسائل مغلقة، وإنني مجرد ناقل لها، ولا أعلم كنه هذه الشفرة!!

نقلت بعد انتهاء التحقيق الذي استمر أيام إلى ثكنة البوليس العسكري في وسط طهران (دژبان جمشيديه). ولم يكن في المعتقل سوى شخص واحد هو الأدميرال أحمد مدني قائد القوات البحرية الإيرانية ومحافظ الأهواز سابقاً بعد الثورة الذي اعتقل بدعوى التجسس لصالح أمريكا. وهو الاتهام المفضل الذي توجهه السلطات الإيرانية سواء في عهد الشاه أو بعد الثورة ضد أي شخص. كنت أحاول تمرير رسالة من السجن إلى الرفاق في حزب توده لتحذيرهم من هذا الشخص المريب بعد أن تيقنت بأنه يتعامل مع أجهزة الأمن الإيرانية. حاولت التعرف على حرس السجن وهم غالباً من الشباب الذي يؤدون الخدمة العسكرية ومن مختلف الاتجاهات. حاولت أن أجس النبض حول اتجاهاتهم السياسية، فقد كنت أتوقع أن لا بد أن يكون لواحد منهم علاقة بحزب توده. هدفي هو السعي لأرسال رسالة تحذير لقيادة حزب توده إيران. وأخيراً عثرت على الشاب المطلوب وتيقنت أن له علاقة مع الحزب ويحضر الندوات الأسبوعية لسكرتير الحزب نوري الدين كيانوري. وبعد أحاديث متشعبة خلال نوبات حراسته المتكررة، ففتحته بالأمر وأبدى هذا الشاب استعدادده لنقل الرسالة وطلبت منه ورقة وقلم لأحرر هذه الرسالة. وبالفعل وفي نوبة حراسته اللاحقة جلب الورق والقلم وحررت الرسالة وأشرت بشكل واضح أن كوزيكيين متواطئ مع أجهزة الأمن الإيرانية، وطلبت من هذا الشاب تسليم الرسالة إلى محمد علي أحد أعضاء المكتب السياسي وسكرتارية اللجنة المركزية لحزب توده إيران.

تركز التحقيق بشكل أساس حول العلاقة مع حزب توده، وربط ذلك بالاتحاد السوفييتي لتصوير الأمر وكأنها مؤامرة مزعومة للحركة الشيوعية العالمية ضد الحكم، وهو ما أقدم عليه الحكم لاحقاً لتبرير الهجوم الكاسح على حزب توده عام 1983. إنهم على علم بأنني قضيت سبع سنوات في السجون الإيرانية (1964-1971)، ولا بد لي وأن التقيت بالسجناء السياسيين من شتى الألوان، وبضمنهم رفاق حزب توده إيران. أكدت في التحقيق أن لا علاقة لي بحزب توده ولا بأشخاص قضيت معهم السجن في العهد الشاهنشاهي. كان التيار المتشدد وأطراف في التيار القومي الديني سواء في السجن أو بعد الثورة يخشون من أية عودة لنفوذ حزب توده إيران من جديد. وأتضح لي ذلك في عهد الشاه عندما كان يدخل السجن شباب من التيار الديني ويلتقون خاصة بالسجناء الضباط من أعضاء حزب توده، وتتضح الأمور ويتبدد التشويه ضد الحزب، ينتقل بعض هؤلاء الشباب إلى مواقع الحزب. كما لاحظت ذلك حتى بعد الثورة حيث بدأ الحزب من الصفر لإحياء تنظيماته، واتخذ سياسة مرنة تجاه السلطة الجديدة لتجنب الصدام معه ضمن ما عُرف آنذاك بدعم "خط الإمام المعادي للأمبريالية"، إضافة إلى سعيه الدؤوب لتعزيز علاقاته مع منظمات اليسار الإيراني والحد من المواجهة معه. وقد أفلح حزب توده في التقارب مع منظمة فدائيي خلق (الأكثرية) بعد أن كانت غيوم الخصومة هي التي تهيمن على العلاقة بين الطرفين، وهذا ما أثار القلق لدى خصوم الحزب في الحكم الجديد. ومما زاد القلق لدى هذه القوى هو إقدام الحزب على تزويد أحد محافظي الإمام الخميني، وهو حميد الأنصاري، على مخطط لقوى تابعة لفلول الحكم الشاهنشاهي بقيادة الجنرال الطيار سعيد مهديون - القائد السابق للقوة الجوية الإيرانية، ومدعومة من الغرب، للقيام بانقلاب عسكري تحت شعار "نجاه إيران"، ينطلق من قاعدة "الحر" الجوية العسكرية في همدان، بما عرف بـ "انقلاب نوژه" (كودتا نوژه)، وذلك في التاسع من حزيران عام 1980، وتم قمع المؤامرة. ويذكرني ذلك في العراق بسلوك عبد الكريم قاسم بعد تغيير سياسته، فكلما كانت ترد للحزب الشيوعي معلومات حول مؤامرة للاطاحة بحكم عبد الكريم قاسم وإبلاغه بتفاصيلها، تزداد شكوك قاسم بالحزب الشيوعي ويمعن في ملاحظته ويرتفع صوته بنفي أية مؤامرة - ماكو مؤامرة!!!.

انتهى التحقيق، ونُقلت إلى سجن إيفين الشهير في شمالي طهران. مدير السجن هو أسد الله لاجوردي من تيار "المؤتلفة" المتطرف واليد الضاربة للخميني قبل وبعد الثورة. وكان محكوماً عليه بالسجن المؤبد في عهد الشاه لمشاركته في اغتيال رئيس الوزراء الإيراني حسن علي منصور في 27 كانون الثاني عام 1965. وقد شاركنا في سجن قصر القاطع الرابع حتى إبعاده إلى جنوب إيران. السجن الإنفرادي في سجن إيفين الرهيب على نوعين، الأول يضم صف من الزنانات على جانبيين ويشترك السجناء في استخدام المرافق الصحية كل على انفراد. أما القسم الآخر من الزنانات الانفرادية فهي تتكون من زنانات صغيرة تحوي على تواليت "فرنجي" وحنفية كهربائية ومعزولة كلياً عن العالم الخارجي بحيث يسود صمت مطلق في الغرفة، ولا يسمع السجن أي صوت أو نفس. ويقدم الطعام في قصعة عبر فتحة يمكن فتحها من الخارج ولا يمكن فتحها من داخل الزنانة. وهكذا مرت الأيام في عزلة عن عالم الأحياء، بشراً كانوا أو حيوانات. بعد بضعة أشهر، نودي على محمود عبيد، وهو أسمى في جواز السفر اليميني الديمقراطي، ورافقني الحرس إلى القاطع الثالث من سجن إيفين. ويمكن للمرء أن يتعرف في هذا القاطع على مختلف نماذج السجناء، مجموعة تضم فنان رسام مع صاحب مطبعة تم إعتقالهما بتهمة تزوير الدولار. وعندما تم السؤال في التحقيق عن الدافع لهذا التزوير، أجاب صاحب المطبعة إنه ضرب من مقارعة الشيطان الأكبر!!! أمريكا؟. وضم السجن مجموعة كبيرة من مهربي المواد المخدرة والمعتادين عليها الذين استمروا في تهريب المخدرات وإدخالها إلى السجن عن طريق رشوة حرس

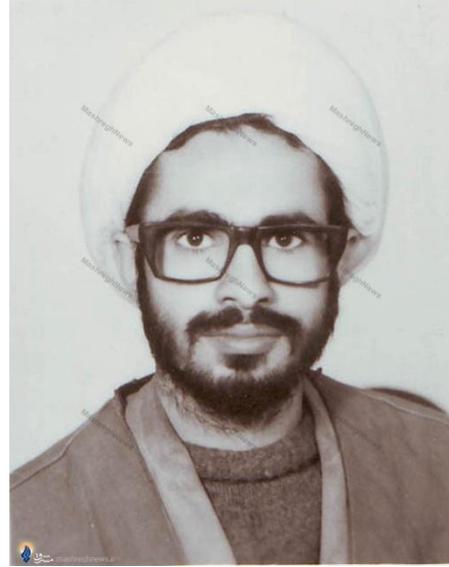
السجن. كانوا يعمدون إلى قلي البصل أثناء تناولهم المخدرات كي يغطوا على رائحتها. هذا الصنف من المعتقلين يرقدون في الطابق الأول، أما الطابق الثاني فمخصص لرجال العهد السابق من مدنيين وعسكريين وضباط أجهزة الأمن والبهائيين، إضافة إلى عناصر شاركت بفعالية في الثورة الإيرانية من أنصار منظمة مجاهدي خلق ومنظمة فدائيي خلق (الأكثرية) وحزب توده ايران ونشطاء في أحزاب يسارية وقومية كردية وعربية وآذرية وتركمانية. من سوء الحظ أن ساقني الحرس إلى غرفة غالبية أفرادها من كوادر جهاز الساواك، تمارضت بعد حين وطلبت نقلي إلى أية غرفة أخرى. شاركت في الغرفة الأخرى كثرة من شباب ينتمون إلى فدائيي خلق وبضعة أعضاء شباب في حزب توده إيران، إضافة إلى معتقلين أكراد وتركمان وعرب ممن شاركوا اجتماعات أو احتجاجات ضد سياسة الحكم الجديد. تنفست الصعداء بين هذه الشلة الجميلة من الشباب الإيراني المفعم بالحماس والخلق الرفيع. بينهم طلبة جامعات وفنانين وعمال ومهن أخرى اعتقلوا في فعاليات جماهيرية أو في إضرابات عمالية.

تعرفت في هذا القاطع على شاب كردي ذو طبع جميل، وقد اعتقل أثناء المواجهات مع مسلحي الحكم في كردستان إيران، وحكمت عليه المحكمة الشرعية (دينية) بالإعدام، وقتها صفيت كل مظاهر القضاء المدني الذي كان قائماً في العهد الشاهنشاهي. وكان ينتظر تنفيذ الحكم بين يوم وآخر، وهو عبد الباسط أحمددي من سكنة مدينة بانه. وقد رزقت له بنت وهو في حاله هذه. توطدت أواصر علاقات إنسانيه معه. وفي مساء أحد الايام نودي عليه، هذا النداء الذي كان يثير الرعب لدى السجناء لأنه مؤشر على تنفيذ مسلسل الإعدامات. كان الشاب يعاني من آلام مبرحة في ظهره، ولا يستطيع السير وكنت أقدم له العون للذهاب إلى المغاسل. طلب مني أن أرافقه إلى باب القاطع وهو ذاهب إلى مصيره، رفضت، فكيف لي أن أفود الشاب إلى هذا المصير، ولكنه أصر ولم يطلب من أي شخص ولا من الحرس القيام بذلك. أستجبت لهذا الطلب المرير وقدت هذا الشاب الوديع إلى حنقه وسط حالة من الحزن الشديد.

لنترك الحديث عن أجواء السجن المريرة آنذاك كي نلامسها في فرصة أخرى، ولنستمر في الحديث عن المأزق الذي أحاط بي. في سجن إيقين لم يجر أي تحقيق إضافي معي. وفي أحد الأيام زارني زميلي في سجن الشاه محمد منتظري، نجل آية الله منتظري. وكان محمد منتظري قد اعتقل في منتصف الستينيات وحكم عليه بالسجن لمدة سنتين أو ثلاث سنوات قضاها معنا في القاطع الرابع من سجن قصر في طهران. وقد زاملنا في هذا السجن المرحوم طيب الذكر آيت الله حسين علي منتظري والد محمد. علماً أن محمد قد فر من إيران عام 1971 ولجأ إلى العراق عله يقيم الصلة مع الخميني في مدينة النجف. قبل إطلاق سراحه من سجن قصر في عام 1967، أعطيته عنوان بيتنا في بغداد، وجاء إلى البيت في ظل تساؤلات من الأهل حول هذا الشخص المعمم. بقي في البيت لأسابيع معدودة ثم إلتحق بجماعته في النجف إلى أن التقيت به بعد سقوط الشاه في طهران وبرز كنجم في الساحة السياسية الإيرانية المليئة بالمتناقضات. شرحت ل محمد حقيقة الأمر وأشرت بشكل صريح إلى الصفة التي حاكتها المخبرات الإيرانية مع العميل السوفييتي. أنصت محمد إلى حديثي وقال إن قضيتك بيد مصطفى جمران، وما دام باقياً في موقعه فلا يمكن إطلاق سراحك.



محمد كاظم بجنوردي



محمد منتظري

كما زارني صديق طيب آخر هو السيد محمد كاظم بجنوري الذي إعتقل في النصف الأول من عقد الستينيات لتزعمه "حزب الأمم الإسلامية" الذي سعى إلى ممارسة الكفاح المسلح لاسقاط حكم الشاه، وحكم عليه وعلى عدد من رفاقه بالإعدام ، ولكن خفف الحكم إلى المؤبد لكون محمد كاظم هو حفيد المرجع الديني المنتور في النجف سيد أبو الحسن الإصفهاني. وأطلق سراحه بعد أول شرارات الثورة الإيرانية، وأحتل مقعداً في مجلس الشورى الإسلامي الإيراني، ثم تسلم منصب مركز الأبحاث الإسلامية وأصبح مستشاراً لرئيس الجمهورية الأسبق محمد خاتمي.

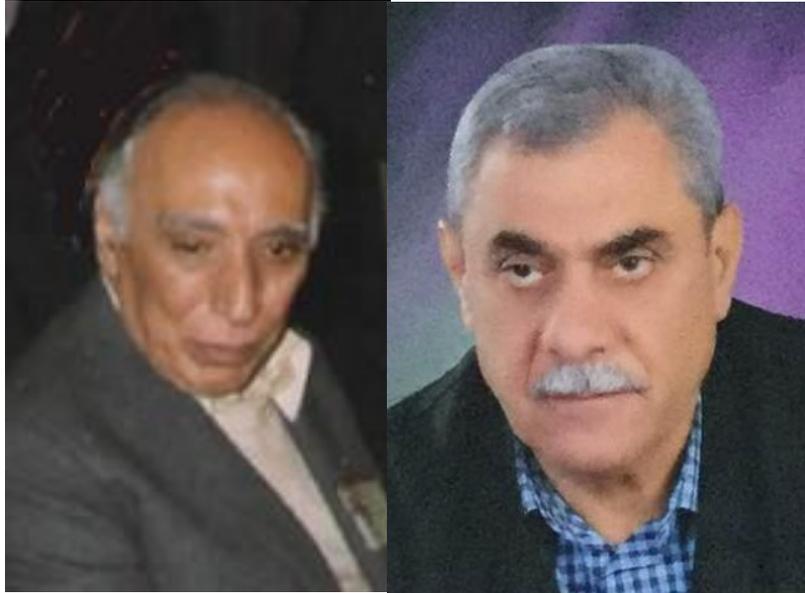
كما زارني في السجن القائم بالإعمال السوري السيد أياد المحمود، الذي التقيته قبل اعتقالي عدة مرات في طهران لترتيب شؤون العراقيين في إيران وتسهيل سفرهم إلى سوريا. وحسب ما تناقلته صحيفة الشراع اللبنانية والعربية نت، فإن أياد، كما يشار، هو أسم حركي له، أما أسمه الصريح فهو رضوان الأسد، وهو قريب للرئيس الراحل حافظ الأسد. وقد تعرض إلى محاولة اعتداء من قبل عصابات تابعة لقاسم سليماني أمام بيته في طهران. وأشارت صحيفة الوطن السعودية إلى أنه قد تم اختطاف أياد المحمود في الثاني من تشرين الثاني عام 1986، ولم يطلق سراحه إلا بعد التهديدات التي وجهها حافظ الأسد إلى مختطفيه. في زيارته إلى سجن أيفين، في نيسان عام 1981، أبلغني أياد المحمود أنه بعد تدخل الرئيس السوري، سيتم إطلاق سراحك قريباً.

في السابع والعشرين من حزيران عام 1981 وفي الساعة السابعة مساءً، نودي من مكبرات الصوت على سبعة من السجناء ومن ضمنهم محمود عبيد (عادل حبه). هذا النداء في العادة هو نذير شؤوم عند السجناء، فهو مؤشر على الدعوة لتنفيذ أحكام الإعدام بالسجناء. التف حولي الشبيبة في زنزانتنا وهم يرددون نشيد الأممية مع مشاعر ودية لا تخلو من ذرف الدموع، ظناً منهم إنني متوجه صوب منصة الإعدام. سلمت كل محتوياتي الشخصية إلى أحد الشباب كي يسلمها إلى زوجتي التي كانت تنتظر في طهران مع الأولاد. توجهنا إلى بوابة القاطع، وشرع الحرس بقراءة الأسماء مع عبارة "الأهل في انتظارك"، وهو مؤشر على لقاء الوداع وتنفيذ حكم الإعدام فجر اليوم التالي. وما أن وصل دوري فاجأني الحرس وأبلغوني بأني مطرود من إيران!!! رجعت إلى السجن لجمع حاجياتي البسيطة وسط تهليل من قبل الشبيبة الذين جمعوا مبلغاً كبيراً من التومانات الإيرانية لسد حاجياتي، وكان على رأسهم طيب الذكر الفنان والشهيد مرتضى ميثمي من كوادر منظمة فدائيي خلق (الأكثرية) الذي أعدم لاحقاً في

مجزرة السجون في تموز عام 1988، بعد أن أعلن الخميني "تناول جرعة السم"، ووافق على قرار الأمم المتحدة بوقف الحرب.

توجهنا إلى موقف المعتقلين في مطار مهرداد في العاصمة الإيرانية بأمل أن استقل الطائرة إلى دمشق في صباح اليوم التالي، حيث رتب الأمور السيد أياد المحمود. في موقف المطار قابلت الشخص الوحيد في الموقف الذي بدت على ملامحه السمات العراقية، وقال إنه من أهالي الناصرية، وقد هرب من العراق بسبب الملاحقات، واعتقل من قبل حرس الحدود الإيراني ونقل إلى موقف المطار. لم يكن يملك أي شيء وفي حالة صعبة، قدمت له كل التومات التي جمعها الشبيبة في السجن عسى أن يستفاد منها في غربته. في صبيحة اليوم الثاني المصادف الثامن والعشرين من حزيران عام 1981، استقبلني شخص من مكتب الأمام الخميني وعرف نفسه .. كفاش زاده!!! كي يشرف ويطمئن على مغادرتي طهران بسلام، خشية أن تبادر عصابات معينة باختطافي أو منعي من مغادرة الأراضي الإيرانية. فعلاً صاحبني الرجل من الموقف إلى الطائرة وسلمني بطاقة السفر ووثيقة المغادرة، وصعد معي إلى الطائرة ليطمئن على مغادرتي. في المطار أعلن الراديو الرسمي الإيراني خبر الانفجار الذي أودى بحياة العشرات من قادة الحزب الجمهوري الإسلامي وعلى رأسهم زعيم الحزب آية الله محمد بهشتي، ومن ضمنهم الصديق محمد منتظري الذي كان ضيفاً على اجتماع في مقر ذلك الحزب. حزنت بصدق على هذا الشاب الصدوق وزميلي الذي تحمل التعذيب ومرارات السجن في عهد الشاه.

إن مرض وهوس معاداة الشيوعيين والشيوعية وتلاعبهم باكذوبة الخطر والمؤامرة الشيوعية لم تفارق أدمغة المتطرفين في إيران وأدمغة القائمين على الشأن الأمني. فإلى جانب ملاحقاتهم لقوى اليسار وخاصة حزب توده إيران، فإنهم استمروا بملاحقة الشيوعيين العراقيين، ولم تخلُ المعتقلات الإيرانية من الشيوعيين واليساريين العراقيين وتوجيه الاتهام المبتذل لهم بالجاسوسية، وهم لم يتوجهوا إلى إيران إلا بسبب بطش أقرانهم في البطش والاستبداد من حكام العراق.



رحيم عجيته

حيدر الشيخ علي

وهكذا جرى اعتقال الرفيق حيدر الشيخ علي الكادر العمالي الشيوعي وتعرض للتعذيب الرهيب، واعتقل الدكتور رحيم عجيمة الذي كان ينوي السفر إلى سوريا بعد مغادرته مواقع الأنصار في جبال كردستان العراق. والتهمة واحدة وهي التجسس لحساب الاتحاد السوفييتي أو العلاقة مع حزب توده

والأوهام التي تدور في مخيلاتهم المريضة حول نية الحركة الشيوعية ضد الحكم في إيران. كانت الطبخة قد نضجت للإجهاز على حزب توده ايران، خاصة بعد ان سارع فلاديمير كوزيچكين إلى الهروب من طهران إثر تبلور الشكوك حوله لدى المسؤولين السوفييت الذين أرسلوا ممثلاً أمنياً من "الدائرة الرئيسية للجنة أمن الدولة" في منتصف عام 1982 للتحقيق في اختفاء وثائق من الملفات السرية الموجودة بحوزة كوزيچكين. وما أن وصل الخبر إلى سمع هذا الشخص الاستفزازي حتى إتصل بمحطة المخابرات البريطانية في طهران لتأمين أمر تهريبه خارج إيران. ولم يكن ذلك ممكناً بدون تعاون الأجهزة الأمنية الإيرانية. وبالفعل جرى تهريبه إلى تركيا ثم إلى المملكة المتحدة حيث طلب اللجوء فيها وبقي هناك لحد الآن رغم تعرضه لمحاولة اغتيال في عام 1986.

ولكن استمرت السيناريوهات المعدة لتصفية حزب توده وتوجيه الاتهام للإتحاد السوفييتي وبقيت قائمة على قدم وساق. في البداية بدأت بالفعل حملة اعتقالات وإغلاق مقرات حزب توده في جميع المدن الإيرانية إلى جانب مطاردة جميع الأحزاب والحركات التي تعارض الاستبداد الديني. واشتد ذلك خاصة بعد ان شرعت بعض الأحزاب، ومنهم حزب توده، بالتقاطع مع الموقف الرسمي للحكم في رفعه شعار: "الطريق إلى القدس عبر كربلاء؟؟"، بالتنافس مع ديكتاتور العراق صدام حسين الذي رفع شعار: "الطريق إلى القدس عبر عبادان؟؟"، بما يعني الاستمرار بالحرب الضروس بضحاياها الهائلة وخسائرها المادية، بعد أن فقدت كل مبررات استمرارها إثر تراجع قوات صدام إلى الأراضي العراقية. ورفض الحكم الإيراني دعوات الأمم المتحدة والدول الإقليمية والمنظمات الدولية طلب الجنوح إلى السلم ووقف هذه الحرب القذرة. وهكذا توجه الحكم، وبمساعدة المخابرات البريطانية ومباركة وكالة المخابرات المركزية الأمريكية صوب جريمة الهجوم على حزب توده والأحزاب المطالبة بوقف الحرب.

عشية الهجوم جرت مطاردة الرفيق عزيز محمد السكرتير الأسبق للجنة المركزية للحزب الشيوعي العراق، لإعتقاله كمدرک ثمين في سيناريو المؤامرة الشيوعية ضد الحكم الثيوقراطي في إيران. وكان الرفيق عزيز محمد قد غادر مواقع الإنصار في جبال كردستان العراق للتوجه عبر إيران إلى سورية بمساعدة من أحد الأطراف القومية الكردية التي على صلة بالأجهزة الأمنية الإيرانية.



نور الدين كيانوري



عزيز محمد

والتقى في طهران بسكرتير حزب توده إيران نور الدين كيانوري عدة مرات بحضور عضو اللجنة المركزية لحزب توده إيران الشهيد الصحفي الكردي حسن قزلجي الذي أعدم لاحقاً عام 1988 بعد اعتقاله أثناء الهجوم على حزب توده إيران. وشعر الرفيق عزيز بملاحقة الأجهزة الأمنية له ومحاولة اعتقاله. وقد صدر أمر اعتقاله من الدائرة الثامنة لجهاز الأمن (ساواما) المرتبط برئاسة الوزراء، وهي الدائرة البديلة لدائرة جهاز الساواك في عهد الشاه والتي حلت بعد الثورة والمخصصة لمطاردة الشيوعيين واليسار عموماً. توجهت قيادة الحزب على عجل صوب الرئيس اليمني الجنوبي علي ناصر محمد للتدخل لانقاذ عزيز محمد مستفيداً من علاقة اليمن الديمقراطية مع النظام الجديد في إيران، حيث أدانت اليمن الديمقراطية وسوريا فقط من بين كل الدول العربية شن صدام حسين الحرب على إيران. وأوفد الرئيس اليمني طائرة خاصة مع وفد رفيع المستوى برئاسة وزير التخطيط السيد عبد القادر باجمال لإخراج الرفيق عزيز محمد من هذا الفخ. وإستطاع الوفد اليمني وبجهد جهيد إخراج الرفيق من طهران ونقله إلى دمشق. وكان كل من الفقيد عبد الرزاق الصافي وعادل حبه في استقباله في المطار. قبل يومين كنت استمع إلى راديو ب.ب.سي. ، هيئة الإذاعة البريطانية التي أذاعت خبراً عن هجوم كاسح شنته أجهزة الأمن الإيرانية على حزب توده إيران. في المطار سألت الرفيق عزيز عن صحة الخبر، وأجاب لقد قابلت نوري الدين كيانوري البارحة في أحد المقرات السرية ولا صحة لهذا الخبر. يبدو أن أجهزة الأمن البريطانية قد سبقت إيصال الخبر إلى الإذاعة ونشر الخبر قبل تنفيذ الهجوم وهو ما يثير العديد من التساؤلات والشكوك.



1940-1903

الدكتور تقي أراني، فليسوف وطبيب ومنظر وحامل لقب الدكتوراه في الفيزياء

هناك الكثير من الشبه بين ما حل بحزب توده إيران والحزب الشيوعي العراقي الذين احتفظا بعلاقات دائمة. فحزب توده إيران هو سليل الحركة الاشتراكية الديمقراطية الإيرانية التي تشكلت من قبل المثقفين

والعمال العاملين في الصناعة النفطية في باكو، والتي تشكلت بتأثير من الحركة الاشتراكية الروسية والبلاشفة على وجه الخصوص. وشارك الاشتراكيون الديمقراطيون الإيرانيون بنشاط في ثورة المشروطة عام 1905. وألقت ثورة شباط الروسية واسقاط النظام القيصري وما أعقبها ثورة أكتوبر بظلالها على الحركة الاشتراكية الإيرانية بعد أن زال كابوس النظام القيصري وحل محله النظام السوفياتي مما دفع الاشتراكيين إلى إعلان الجمهورية السوفيتية في محافظة كيلا الشمالية وفي أذربيجان. وجرى تغيير أسم الحركة إلى الحزب الشيوعي الإيراني إثر ذلك. وقام نظام رضاخان الاستبدادي بقمع الحزب وألقى القبض على قادته وزجهم في سجن قصر في طهران إلى أن جرى تسميم زعيم الحزب الدكتور تقي أراني في شباط عام 1940، قبل سقوط الشاه رضا بعدة أشهر. وبعد سقوط الشاه رضا، التأم ما تبقى من أعضاء الحزب وأسسوا حزب توده إيران في عام 1941. وشارك الحزب في الوزارة التي أعقبت دخول القوات السوفيتية والبريطانية واسقاط الشاه بثلاثة وزراء في الكابينة الوزارية. نهج الحزب تركيز بالأساس على تحديث المجتمع وتصنيع البلاد وإزالة العلاقات الإقطاعية المعرقة لتطور الريف وتحرير الفلاح من جور نظام القنانة، وإشاعة التعليم وتحرير المرأة من قيودها ونشر الثقافة والسماح بتعزيز أسس الديمقراطية في البلاد والعودة إلى دستور حركة المشروطة الذي يحد من تجبر واستبداد الحاكم، وتشكيل النقابات العمالية والتوزيع العادل للثروة والدفاع عن الحقوق القومية للأثنيات القاطنة في إيران، والحد من النفوذ الأجنبي في البلاد وغيره، ولم يطرح الحزب شعار الاشتراكية لعدم نضوجه في البلاد.

سياسة الحزب أثارت القوى المحافظة الداخلية التي تهددت مصالحها جراء طرح هذه الشعارات إلى جانب ما تشكله تهديداً لموقع الشاه في المؤسسة الحاكمة. كما أن القوى الخارجية وتحديداً الامبراطورية البريطانية التي رأت في الحزب تهديداً لنفوذها في إيران ولمصالحها في قطاع النفط (شركة النفط البريطانية)، والقطاعات الأخرى. والنتيجة أن بدأت الخطط والوقية بهذا الحزب لتهميشه منذ إعلان الحرب وحتى يومنا هذا، وكان المشهد الأول هو حظر نشاط حزب توده في الخامس من شباط عام 1949 بإتهام الحزب بمحاولة اغتيال الشاه في جامعة طهران. وبقي الحزب محظوراً منذ ذلك الوقت حتى الآن. ومع الشروع بحملة تأميم النفط الإيراني في بداية الخمسينيات، عاد الحزب بنشاط فعال ومكثف لدعم خطوات الدكتور محمد مصدق رغم الحظر المفروض على نشاطه، حيث مارس نشاطه عبر نقابات العمال واتحاد الشبيبة الديمقراطي والاتحاد النسائي واتحاد طلبة جامعة طهران ومنظمات الأدباء والفنانين، واجتذب الحزب غالبية الفئات الاجتماعية المطالبة بالحدثة والعصرنة والتطوير. وبرزت في الحزب أسماء لامعة من قاداته في مجال الأدب والفن مثل الروائي برزك علوي والفيلسوف والشاعر احسان طبري والروائي به آذين (محمود اعتماد زاده) وعبد الحسين نوشين رائد المسرح الإيراني الحديث وزوجته والشاعر سیاوش كسراني صاحب ملحة "آرش كمانگیر" والآلاف من المبدعين في مجال العلوم وسائر مناحي الثقافة الأخرى. وهذا ما أثار الفزع لدى التيارات المحافظة والمالية للشاه ورجال الدين واعتبروا أن التهديد للشاه، ولم يكن مطروحاً من قبل حزب توده، يمثل تهديداً لرجال الدين ويؤدي إلى سقوط جميع العمائم في إيران، على حد قول المرجع الديني آية الله أبو القاسم الكاشاني الذي ناصب العداة للدكتور محمد مصدق وإعتبره خائناً وأفتى بقتله. صورة بدراميتها تكررت عندنا في العراق أثناء التحضير لمأساة 8 شباط عام 1963 بكل خسائرها السياسية وتضحياتها الجسام. وهنا دخلت على الخط الولايات المتحدة الأمريكية التي سعت بأن تحل محل حليفها بريطانيا العظمى في النفوذ الاقتصادي والسياسي بعد أن تزعزعت أركان هذه الامبراطورية بعد الحرب العالمية الثانية، وأوعزت الإدارة الأمريكية إلى وكالة المخابرات المركزية بالتخطيط لإنقلابها المشين والإطاحة بسلطة الدكتور

محمد مصدق بمساعدة Mi6 البريطانية، وإلغاء التأميم وبناء المؤسسة النفطية على أساس هيمنة شركات النفط الأمريكية على غالبية الأسهم فيها، ضمن ما عرف لاحقاً بالكونسرسیوم. وهكذا تهاوى نظام مصدق في التاسع عشر من آب عام 1953، بنفس الطريقة وبنفس الأسباب التي أدت إلى تهاوي نظام عبد الكريم قاسم، وتوجه الانقلابيون بالأساس صوب تحطيم وإزاحة حزب توده من الساحة السياسية عبر تليفق الأكاذيب والاتهامات وفرش بسط نزيف الدم في البلاد، كما عملوا لاحقاً ضد الحزب الشيوعي العراقي في 8 شباط عام 1963 بالتمام والكمال.

وعلى هذا المنوال بدأت الحملة في نهاية عام 1982، بعد تهريب كوزيچكين من الأراضي الإيرانية، لتصل الحملة أوجها في شباط عام 1983 حيث جرى إعتقال ما يزيد على 10 آلاف من قادة وكوادر حزب توده. وعلى إثرها بدأت ماكنة الرعب والتعذيب والبطش ضد المعتقلين بشكل لم تشهده البلاد حتى في أروقة السواك المرعب، بدعم من الأجهزة الأمنية في بريطانيا والولايات المتحدة. ونشرت صحيفة Daily Mavrick الصادرة في جنوب أفريقيا تقريراً بقلم مارك كورتيس وفيليب ميلر يشير إلى أن: بريطانيا قد دعمت سلطات الجمهورية الإسلامية الإيرانية في تحطيم حزب توده عام 1983. وقد عملت المخابرات البريطانية MI6 مع CIA لتوفير قائمة بعملاء الاتحاد السوفييتي في إيران وقدمتها إلى نظام الخميني، وأشير إلى تصريحات أحد المسؤولين البريطانيين في وزارة الخارجية البريطانية بأن المملكة المتحدة تستفيد من التعذيب لأعضاء وقادة حزب توده للحصول على الاعترافات التي يعتقد بأنها قد تم الحصول عليها بفعل التعذيب الذي لا يمكن مقارنته بأساليب التعذيب الذي استخدمه السواك ضد خصوم النظام الشاهنشاهي". كما نشرت صحيفة الواشنطن بوست تقريراً ورد فيه أن CIA حصلت على كنز من المعلومات حين فر ضابط كبير في ك.ج.بي. فلاديمير كوزيچكين الذي كان على صلة بحزب توده الشيوعي، وقامت CIA بتزويد السلطات الإيرانية بقوائم تضم 200 عميل سوفييتي وطرد 18 دبلوماسياً سوفييتاً من إيران. ولم يُنشر سوى خبر واحد عن دور "كوزيچكين"، وكان ذلك في العام 1985، حينما أشار الصحفيان الأميركيان "جاك أندرسون" و"دايل فان آتا" إلى أن "كوزيچكين" جلب معه حقيبتين تحتويان على وثائق حول "الكا جي بي" وحول حزب تزده إيران. وأضاف الصحفيان أن البريطانيين "مَرّوا المعلومات سرّاً لنظام الخميني". إن دور الأميركيين والبريطانيين في ضرب حزب "توده" في إيران كان يندرج في إطار عمليات "إيران غيت" الشهيرة.

ولكن هذه اللعبة القذرة للأجهزة الأمنية والمسؤولين الإيرانيين لم تؤكد الاتهامات الموجهة ضد الحزب سوى بالإعترافات التي انتزعت من العناصر التي انهارت بسبب ضعفها سواء من بين القياديين، في حين لا يشار إلى مواقف صمود وشجاعة ضد هذه الاتهامات الرخيصة من قبل قادة الحزب من أمثال عباس حجري وابو تراب باقر زاده ورضا شلتوكي وأفضلي قائد القوات البحرية الإيرانية وفرج ميزاني وبهزادي ونيك أنين وتقي كيمنش والعشرات والمئات ممن صمدوا بوجه الظلم والعسف دفاعاً عن المثل والقيم النبيلة التي آمنوا بها، وطموحهم لبناء إيران ديمقراطية ومستقلة وتدار بقوانين حديثة وتسودها العدالة والتنمية. وقد أشار العديد وحتى من خصوم حزب توده فكرياً وسياسياً ومنهم الاستاذ في جامعة هارفارد جرمي فريدمان الذي سعى في جولة له بعد إنهيار الأنظمة في ألمانيا الديمقراطية وفي الإتحاد السوفييتي الإطلاع على الوثائق السرية للأجهزة الأمنية في كلا البلدين، وكتب مقالاً في نشرة "بحوث الحرب الباردة"، أنه لم يعثر في أرشيف الإتحاد السوفييتي ولا في أرشيف ألمانيا الديمقراطية على أي دليل بعمالة قادة وأعضاء في حزب توده لأجهزة المخابرات السوفييتية وألمانيا الديمقراطية، وهذا ما أثار دهشته.

